

العلم والفلسفة والإخيلة الشعرية^(١)

للأمير مصطفى الشهابي

أشرت في المقالة التي عنوانها «هو اجس في الانسان وحياته» وهي المنشورة في مقتطف نيسان «ابريل» من السنة الحاضرة الى ان العلماء (أو اصحاب الفلسفة اليقينية) لا يؤمنون بغير ما يمكن اثباته بالطرائق العلمية من مختلف العلوم التي تقع تحت الحس أو تدرك بدلائل عقلية راسخة. وهم يقدحون في اصحاب فلسفة ما وراء الطبيعة ويتهمونهم بأنهم اناس يرجعون بالغيث ويتبهون في بيدها من الاوهام ويتخططون في خضم من التخيلات الفارغة عند ما يجزمون العلة والمعلول وقدم العالم أو حدوده والأزل والأبد وكن القضاء وشكله وأسباب الوجود وغير ذلك من التصورات التي لا تحس ولا يمكن للعقل السليم ان يتها على الطرائق اليقينية. وبغاي بعضهم فيتهم الفلاسفة المذكورين بأن كل إختلة شعرية لا تتعدى اذهانهم ولا يقوم دليل علمي على وجود مدلول هذه الإخيلة خارج اذهان هؤلاء الفلاسفة. ولستنتج العلماء المشار اليهم انه ما دام الأمر على ما ذكرنا فالأجدد ترك الأبحاث الفلسفية واطراحها جانباً وعدم التعرض لها البتة

ونهب الفلاسفة في وجه العلماء قائلين: لقد آتانا بشرائكم القلمية التي تريدوننا على الأكتفاء بها ولكن هذه الشرائع ليست كل شيء في هذا العالم ولا يمكنكم منع دماغنا عن تأمل هذا انكروز واستنقاء اطبعه وعلاقته بذلك الانسان الذي لا يفتأ يجالذ في الحياة ويكافح وهو كثيراً ما يتألم قليلاً ما يفرح وربما كتب له النصر أحياناً لكنه من المتحتم عليه ان يهلك في النهاية مقهوراً مدحوراً. ثم ذلك العقل البشري اليس له حاجات طبيعية يجب لحصها، وذلك الفكر الجياش بالطواطر والأخيلة اليس من الضروري ان تنفذ الى اعماقه حيث نرى منتجاته فنفرد فيها السمين من الثمت وارادتنا التي تنبأى بها اليس لها مطالب يجب إثباتها وتقديرها حق قدرها. وهذه الطبيعة التي نراها هل تسير بذاتها ام لها علة تسيرها، واذا كان هنالك علة فهل هي مادة أو عقل أو شيء لا يمكن إدراكه؟ وهل للكون حدود في القضاء أم لا، وهل له بداية ام هو ازل اذ لا بد من أن يكون أحد الأمرين صحيحاً. وما هي ماهية الانسان ومن أين أتى وإلى أين يذهب وهل العالم ضيق ام مثير بجزيرة لا

(١) كتبت بعد ثلاثة شهور من الفلاسفة للزالي ونهايت التباغت لابن رشد ومستقبل فلسفة ما وراء الطبيعة ترجمه Alfred Fouillée الفيلسوف الفرنسي والحركة الفكرية ضد العلوم اليقينية المنوية لغويه أيضاً والفرق بين الفرق الشهابي

تترجح. ويحل أمام العالم رقي ام هو يدور ابدئنا على حاله ، وما الحركة العامة للكائنات وما الحكمة فيها. وهل القواعد الاخلاقية شريفة بشرية واجتماعية تحب أم لها اساس في الطبيعة كلها ويضيف الفلاسفة ال ذلك أن تأثير الفلسفة في حياة الناس الاخلاقية والاجتماعية أمر لا يمكن للرجل المستير أن ينكره . ولا تكون سيرة الألسان واحدة اذا ما اعتقد بأن عالم المادة والحراس هو كل شيء أو اذا ما اعتقد بأن وراء ذلك حياة اعلى واتم واقرب من الحقيقة. ولا يكفي ان يظن الألسان الحبل على غاريه ويقول « لا أدري » فالأدوية غير وارودة لأنها تحكم بأن العقل البشري عاجز عن ادراك هذه الامور دون أن تناقش وتتوخى اثبات صحة هذا العجز أو عدم صحته . هذا ولكل طام فلسفة حتى اينشتين نفسه فان العلم اليقيني لم يمنعه عن البحث في الفضاء — الزمن وهو من ابحاث الفلسفة لا من ابحاث العلوم اليقينية. وبالخلاصة ان الفلسفة تدوم ما دام للألسان دماغ يفكر في هذا العالم وفي غوامضه عند ما يصل الفلاسفة في تبيحهم الى هذا الحد ينفذ صبر العلماء فيقولون :

لو دسر الفلاسفة بحمهم على المدركات خاصة وعلى ارتباط ذهننا بما لا يمكن ادراكه لسكتنا على مضض ولتركناهم يتناولون هذه الموضوعات التي قد تكون صحيحة او غير صحيحة . اما ان يعدوا الى ما لا يمكن ادراكه كالعلة او الله مثلا فيبشروا بنا أنه موجود او قابل الوجود او غير قابل الوجود او يمكن ان يكون على شكل ما أو لا يمكن ان يكون على شكل ما أو له صلة بالكائنات او لا صلة له بها او ان الكائنات صورة منه أو انها ليست صورة منه فهذه امور لا يستطيع العقل البشري ان يجزها والاجدر بالانسان اذا ما مثل اسئلة كهذه ان يسكت ويقول لا ادري او ان يجيب بلفظة « ربما » دون غيرها . وجزم الفلاسفة لما لا يمكن ادراكه يجعل العلماء يسخرون بهم لاننا نرى كل فيلسوف يقطع امراً مخالفاً لما قطعته رفته فأين هي الحقيقة يا ترى ؟ هذا يقول بقدم العالم وبكونه موجوداً مع الله ومساوفاً له وبأن خائن العالم من التقدم في دائرة الزمن اعتقاداً من الحاجة بكان . فالعالم انلي لا يده له وهو لم ترجده علة وذلك يقول بعكس ذلك اي بأن العالم مكون ومحدث وعلى ذلك اصحاب الاديان . ومع هذا لو سألهم اصحیح ان العالم خلق منذ نحو ٨٠٠٠ سنة اجابوك ان ذلك مخالف لقواعد العلم واتمكر الاساسية لان الفكر لا يتصور ماهية المدم ولا كيفية خلق الكائن منه ولا السبب الذي حل الآله على اتيان هذه الاعجوبة منذ ٨٠٠٠ سنة او اكثر او اقل . اما العلة التي كونت هذا العالم فقد ذهبوا فيها كل مذهب فاليونان خاصة والرومان بعدهم جعلوا لكل شيء الهاً او أكثر وجعلوا لهذه الآلهة كل ما يمكن ان تصوره من صفات بشرية فالآلهة لديهم تتحارب وتتخايل وتتشاهون لتسر للطرب وللالماب وترتاد اما كمن الربية وبجالس البهتان فتكر وتعمرد وتتنازع الجليات الحسان من اناث الآلهة الى آخر ما يمكن للناس ان يعملوه حتى السفلة منهم

وهذا جوبيتر (المشتري) اب الآلهة ورئيسها ورب السماء والارض أندري بأي اعجوبة جاء الى هذا العالم ؟ لقد خرج من فم ابيه ساتورن وعذباً أو نكراً بأنه سيلتهم اولاده عقب ولادتهم ومنهم جوبيتر. لحزت امرأته حزناً شديداً وفتقت طمأنتها بعد لا ي أن تضع حجراً مكان ابنها جوبيتر حتى اذا ما جاء الأب ليوفي بوعده التهم الحجر بدل الطفل ، وكذا كان . لذلك لجار رئيس الآلهة جوبيتر من الموت الزؤام وادرك اياه فهوى به عن العرش ثم اخذ يفرق الكائنات على الآلهة لكنه لم يفعل عن حقوقه الشخصية فاحتفظ لنفسه بالسماء والارض معاً. ونظر الى ذوي القربى فبراً بعلته الرحم وجعل اخاه نبتون إله البحر واخوته سمرس إلهة الزراعة وابنته ديانا إلهة الصيد وابنته مينرفا إلهة الحكمة والفضول . اما بناته التسع الملهيات الشعر للشعراء فقد جعلهن ربوات الفنون والاعلاق النفيسة . فأعجب لهذا الاله القادر وصل نفسك ماذا كان محل العالم لو ان والده جوبيتر لم تضع حجراً مكانه بل تركت اياه يتعلمه وهو طفل في حجرها ...

ثم انظر الى فينوس الزهرة إلهة الجمال الملوودة من زبد البحر ما اجملها وهي تخرج من بين الامواج ويدها تعقم شعرها فكم تمت غادات اليونان ان يحاكيها بجملها الساحر الفنان ولا تنس ذكر سمرس إلهة الزراعة ولكن اذا كنت مثلي ذا صلة بالزراعة والنبات فلا تتردد واعبد من شئت ممن انعموا عليك من ارباب الزراعة الخالدين مثل اوزيريس المصريين ونيبيب الكلدانيين وغيرها

ولكن أليس من الغريب ان هذا الجيش من الآلهة لم يرض احداً منهم حتى اليوم بأن يتجلى امام احد من سكان هذه الارض الجباري البائسين وابن الجن والابالة الذين طالما تعنى برصنهم الشعراء وأخيف بذكرهم الاطفال وقله در فيلسوف المعرة القائل :

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت به حياً يحسن لجنتي ولا ملك

واذا بنا عقلت عن عبادة آلهة اليونان والرومان فطريك بالهة المصريين الاقدمين فقد كانوا ايضاً عظماء لدى الناس مثل رع وايزيس واوزيريس وسائر الثعراضة وهم كثر . ويمكنك ان تعبد النيل ونجزم مثلهم ان مله ينزل من السماء ومع هذا لا تنس ان رواد ايماننا هذه قد كشفوا الفطاء عن منبته وتبعوه حتى مصبه فاذا به لا صلة له بالسماء البتة

وربما جاز في خلدك أن تتخذ لك صنماً تعبده . لكنني أخشى أن يكون من عجيب أو حلوى فتضطر الى أكله في مضطرب هذه الأزمة الاقتصادية كما فعل بعض العرب قبل الإسلام . وأخشى ايضاً أن يعيبه ما أصاب صنم بني سليم وكان سادته يسمى غاوي بن ظالم فبينما هو ذات يوم جالس بعيداً عنه اذا بشعلبان اقبلا وهما يشندان فشعر كل منهما رجله وبال على الصنم فنظر اليه غاوي متأملاً وقال

أرب يقول الثعلبان برأسه لقد هان من بالث عليه الثعالب
 وتمجس إن شئت وأعد النار والنور أو عليك بالأله برها وأوجه الثلاثة أو آمن
 بأقائم النصراري أو بالله المسعين الواحد الأحد أنتظن انك وصلت ال حيث تبشني أي بلغت
 صدره المنتهى فارتجح فكرك وخلا من هواجسه . انك يصاح ما برحت امام مذاهب عدة
 في كل من هذه الديانات . وأنت تحار أيها اصدق . فاذا كنت مسلماً مثلاً اتكون من التقديرية
 او المعتزلة او الجهمية او المشبهة الی عشرات من الفرق التي يكذب دعاة كل منها اتباع الفرق
 السائرة . او كنت من المسيحين فربما ضمت في معترك الفرق النصرانية . وبعد مها يكن نوع
 اعتقادك بالعلة الاولى فإلك ان تجعل منها في حياتك سبباً للكره والزراع والقسوة والآن
 عدنا الی مثل مذابح « سان برتلي » الوحشية ايام شارل التاسع في فرنسا او الی مثل فظائع
 الأزارقة من الطولوج في الأسلام الذين نال القائد الكبير المهلب ابن ابي صفرة بحاربهم
 مع ابنائه تسع عشرة سنة

ومتى بلغ العلماء هذا الحد من التعرض لمذاهب الفلاسفة واللاهوتيين الذين يتداولون
 بأبحاثهم ما لا يمكن ادراكه كالعلة الأولى مثلاً فيفصلونها على قدر عقولهم او على قدر ما تبلغه
 اوهامهم ينضب الفلاسفة على العلماء ويقولون : متى كانت علمكم هي الحقيقة اليقينية بعينها .
 ليست العلوم مجموع شرائع ذهنية لحوادث الطبيعة تتصورها نحن كما تصور الأبحاث الفلسفية .
 لا شك ان هذه الشرائع ترتكز على الحس والعقل وهي مضبوطة ضبطاً رياضياً في الغالب
 وتدعمها التجارب والوقائع الراهنة لكنها هي شيء والطبيعة نفسها شيء آخر . فالغاز مثلاً
 لا يتعدد بقانون ماريوط بل يتعدد بتأثيرات خفية لا يطلعنا القانون المذكور الا على نتائج
 عملها والآن على حساباتنا الرياضية طهه النتائج . ولذلك نرى ان الطبيعة والحقيقة الواقعية
 نجعل شرائعنا وارقامنا وطرائق تصورنا للطبيعة وتمثيلنا لها . وليست القوانين العلمية في
 النهاية سوى افكار تجول في خاطرننا كلافكار الفلسفية . وهذه الانكار شيء وعالم الطبيعة
 كما قلنا شيء آخر . ثم لنفرض اننا اتينا الی هذا العالم بعد ملايين من السنين واننا حللنا كل
 حوادث الطبيعة بقوانين لا تقبل الاخذ والرد أو ضبطنا كل هذه القوانين بقانون أعلى ينسلبها
 جميعاً فتظنون ان دماغنا يكتفي بذلك ام هو يتساءل هل هذه الحوادث وقوانينها العلمية
 والقانون الاعلى لقوانينها هي كل شيء في هذا الكون وهلاً يوجد شيء داخلها أو خارجها ؟
 وبعد هذا كيف يظن العلماء بالفلسفة ممثلين بمذاهب فلاسفة القرون الاولى والوسطى
 مع أن فلاسفة اليوم قد ارتقت مداركهم وتصوراتهم عن قبل كما ارتقت العلوم نفسها فصارت
 تؤخذ بوسائل يقينية غير الوسائل القديمة

وبعد ان يكت اثنا فلسفة ويشفوا غلبتهم من العلماء يقوم الشعراء الخياليون متبرزين
 متضجرين من القيود الحسية والعقلية التي يتقيد بها الفريقان فيقولون . اما نحن ياسادتي فلنا
 الاختيالة الواسعة والنصوات التي لاحد لها سواء اكان لها ظل من الحقيقة ام لا . انفسنا اذا
 شئنا ضربنا الآلهة بعضهم ببعض واوقفنا الانلاك عن الدوران ووحدنا الاضداد واعدنا
 الموجودات وخلقنا ما اردنا من العدم . فان قسم هذه اوهام سينمية لا تتعدى اذهاننا فلنا
 اثبتوا لنا ان العالم لا يصح ان يطلق عليه اسم اسينما الاكبر . . . واثبتوا انه لا يوجد وراء
 حواسنا المحس اشياء يجب لا دراكها ان يكون لنا غير هذه الحواس . . .

ومنى وصلت المهارة الى هذا الحد يقوم رجل حكيم منصف وزن الامور بميزان العقل
 فيقول : لكل من العلوم والفلسفة والاهام الشعرية حدود يجب ان تشف عندها . فالعلم
 اليقيني اليوم يتناول صلة الموجودات الثابتة بعضها ببعض بصرف النظر عن صلتها بالشخص
 الذي يحس ويفكر او صلتها بمجموع العالم . ولا يهتم في العلوم اليقينية الا لمعرفة ماهية الصلات
 التي تربط الاشياء الثابتة بعضها ببعض ولذلك يمكن في العلم ان يتطلع الانسان لمعرفة النتائج
 من المقدمات اي معرفة الحوادث التالية من التي سبقها وادت الى حدوثها دون ما حاجة الى
 معرفة الاسباب التي اوصلت الى ذلك اي الى حصول الحادث اللاحق من الحادث السابق .
 وتكون العلوم اليقينية ثابتة لانها تفرض بادى بدء صحة شيء ما دون الاعتاد عنه وتشف عند
 النتيجة الحاصلة دون ان تتعداها . والعلم اليقيني كما ترون صحيح بذاته لكنه لا يتناول سوى
 جزء من الاشياء الحقيقية عدا ان كل علم لا يتعدى الحدود التي رسمت له . فالميكانيكي مثلاً
 لا يهتم بغير الحركة والرياضي لغير الارقام والمسافات وهكذا . والعالم في نظر العلوم اليقينية
 كالمرآة المكسورة يتناول كل علم قطعة منها

اما الفيلسفة فانها تجمع قطع هذه المرآة وتسمى رؤية صورة الكون بها . فالفيلسفة اذن هي
 التطلع لمعرفة الكون بمجموعه ومعرفة النفس التي تدركه . وهي ايضاً انتقاد العلوم وتحديدتها
 واقامها بانفكار يتوخى بها تصوير وحدة الكون الحقيقية . والسؤالان العظيمان اللذان
 تتناولهما الفيلسفة هما كيف يمكن معرفة الاشياء وكيف تكون هذه الاشياء . ويجب ان لا تتناول
 الفيلسفة سوى المدركات وسوى علاقة ذهننا بها لا يمكن ادراكه ولا ينبغي لها ان تجزم الامور
 في كل ما لا يمكن ادراكه ما دام العقل البشري غير قادر على بته

ويتضح من ذلك ان الفيلسفة ترتكز منطقياً على الاستقراء وانها تتوخى جعل الحقائق
 ضمن المقولات اما الاختيالة الشعرية فاوهام لا نحسها ولا نعقلها